

والله اعلم
بالحق

محمّد

المثل الأعلى

عربي
محمد السباعي

بي
نيل



Bibliotheca Alexandrina

نشر: مكتبة الآداب

٤٢ ميدان التحرير - القاهرة ١١٦٨٠٠٣٩

محمّد ﷺ

المثل الأعلى

للمؤرخ إدوينجلىزى

توماس كارليل

عربه

محمد السباعى

مكتبة الآداب

٤٢ ميلان الأوبرا - القاهرة

ث: ٣٩٠٠٨٦٨٠ - ٣٩١٩٢٧٧

رقم الإيداع ٥٣٢٢ / ١٩٩١

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-241-033-8

ذو الحجة ١٤١٣ هـ - مايو ١٩٩٣ م

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة الآداب (عل حسن)

فهرست الكتاب

- ٦ * كلمة الناشر
- ٨ * ترجمة المؤلف - وترجمة المترجم
- ١٠ من أكبر العار القول إن محمداً كذاب
- ١١ قلوب خبيثة
- ١٢ قوانين الطبيعة - الرجل الكبير - إخلاصه
- ١٤ كلمات الرجل العظيم
- ١٥ هفوات الرجل العظيم
- ١٦ العرب وصفة جديرة العرب
- ١٨ التدين في العرب - سفر أيوب كتب في بلاد العرب ...
- ١٩ الحجرة السوداء والسكينة
- ٢٠ بشر زهرم - السكينة
- ٢٢ مولد محمد ونشأته
- ٢٣ سفره للشام والتقاؤه بالراهب بحيرا
- ٢٤ أمية محمد
- ٢٥ صديق محمد منذ طفولته - الابتسام الصادق والكاذب ...
- ٢٦ هيئته الحادثة وزواجه بخديجة

- محمد برىء من الطمع الدنيوى وعطاس وناخذ البهيرة . . . ٢٧
- الرجل العظيم ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ٢٩
- اختلاء محمد بنفسه واعتزاله الناس في رمضان ٣٠
- ابتداء البعثة ٣٠
- حقيقة الإسلام وكلمة جوته فيه — كلنا مسلمون ٣١
- الوحى وجبريل ٣٢
- معنى كلمة محمد رسول الله ٣٣
- فضل السيدة خديجة وعلى وزيد بن حارثة ٣٣
- الدعوة إلى الإسلام — سرودة على ونجدة ٣٤
- استبصار قریش من عمل محمد ٣٥
- فصيحة أبي طالب وعزيمة محمد — احتماله الشدائد ٣٦
- تألب قریش على محمد ليقتلوه — هجرته إلى المدينة . . . ٣٧
- الرد على القائلين بأن الإسلام انتشر بالسيف ٣٨
- لا يصح إلا الصحيح — عدل الطبيعة ٣٩
- قضاء محمد على وثنية العرب والعقائد الفاشية في الملك الأيام ٤١
- القرآن وإعجازه ٤٢
- الإخلاص من فضائل القرآن ٤٣
- الإخلاص منشأ الفضائل ٤٤
- القرآن محل أسرار الأمور — المعجزات في نظر الإسلام ٤٥
- الرد على متهمى الإسلام بالشهوانية ٤٧

٤٨	برادة محمد من الشهوات وتواضعه وتشفه
٤٩	مكررات محمد وأخلاقه
٥٠	برادة محمد من الرياء والتصنع
٥١	ما كان محمد بعابث
٥٢	المساواة بين الناس — الزكاة — الجنة والنار
٥٣	الصيام في الإسلام
٥٤	منزلة الإسلام في قلوب المسلمين
٥٥	تأثير الإسلام على العرب وفضلهم عليهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة الناشر

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
أما بعد .. فإن المسلم وظيفته الحقيقية إقامة الحق ومقاومة الباطل .
ولإقامة الحق لها أوجه متعددة ، كما أن مقاومة الباطل لها أيضا
أوجه متعددة .

وبين أيدينا هنا رسالة أراد صاحبها - وهو نصراني من أبرز
شخصيات القرن التاسع عشر - وأعظم فلاسفة الإنجليز قاطبة ،
أن "يبحث" بها سقاً ويبطل باطلا . فلقد هاله ما تعرضت له شخصية
الرسول ﷺ من تحن وظلم ، فبحث وتقصى حتى أدرك جواب
العظمة ومواطن التقدير والإبهار في ذلك الذي « أدبه ربه فأحسن
تأديبه » ، ففرض لها في موضوعية وحيدة جديرتان بالنقد .
واقدر شجعتنا ما وجدناه في هذه الرسالة من إنصاف ونزاهة مقصد
إلى إعادة نصرها عن ترجمة المغفور له الأديب محمد السباعي .
ولكن لغتنا أثناء الطبع ، أن المؤلف ، وإن كنا لا نبغضه حقاً

من الشناعة على روعة فكره وصفاء ذهنه وروحته وشجاعته وصديق مقصده . قد وقع في بعض الأخطاء في تقييم الحقيقة الإسلامية ؛ إذ نزع في بعض فهمه إلى ما أشاعه بعض المستشرقين ومؤرخي الغرب المخرضين منه دس لبعض الأباطيل والآكاذيب التاريخية ، لذا فإنه وإن أدرك بعض جوانب عظمة الإسلام ، فقد غابت عنه جوانب أعظم . لو علمها لسكان بما لمناه فيه من روح الإنصاف وإحقاق الحق من كبار دعاة المسلمين .

ولقد رأينا عند إعادة نشر هذه الرسالة عن ترجمة الأديب محمد السباعي أن تطبعها كما هي دون إضافة أو حذف أى حرف من النص الأصلي ، ولكن واجبنا يقتضينا أن نعلق في الهامش على ما يستوجب تصحيح المفاهيم ، وإعادة الحق إلى نصابه ، وهداية الإنساقية إلى الحقيقة الخاتمة عنها ألا وهي كلمة التوحيد .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

مكتبة الآداب

ذو الحجة ١٤١٣ هـ

مايو ١٩٩٣ م

المؤلف

توماس كارليل: ١٧٩٥ - ١٨٨١

فيلسوف ومؤرخ وأديب انجليزي . من أبرز شخصيات القرن التاسع عشر . تآثر بجماله وشيأه وترجم بعض أعماله . انتقد المجتمع الانجليزي في أول أعماله « سارتور رزارتوس » ، ١٨٢٤ .

ولقد آثر كارليل بأهمية ودور البطولات والشخصيات القيادية في صناعة التاريخ وإصلاح المجتمع ، وكتب في ذلك كتابه « الأبطال والبطولة » ، والبطولة في التاريخ سنة ١٨٤١ . وكان كارليل من أبرز شخصيات عصره وتأثر به الكثيرون من أمثال جون رسكين وماتيو آرنولد .

المترجم

محمد السباعي :

محمد بن محمد بن عبد الوهاب السباعي ، مشهور بليغ ، من كبار المترجمين عن الإنجليزية بمصر . وولده ووفاته بالقاهرة ١٢٩٨ - ١٣٥٠ هـ ١٨٨١ - ١٩٣١ م ترجم « الأبطال توماس كارليل T. Carlyle وقصته مدينتين » ، لوكنز (طبع)

و « بلاغة الإنشائيين » ثلاثة أجزاء (طبع) ويسمى مختارات لوين ، و « الزينية » (طبع) استغمر . ورسائل لاديسون . ومقالة ماكولي بعنوان لاديسون أيها (طبع) . والشعر والصور كلامها من الآلات ، ومذكرات (طبع) . وأبطال مصر في السياسة المصرية وبعض رجالها . وبعد وفاته جمع ابنه يوسف السباعي (الأديب والكاتب القاهري توفى ١٩٧٨) مائة قصة مما كتبه والده حاسب الترجمة أو نقله عن الإنجليزية وأشرفا في علم واحد سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م

البطل^(١) في صورة رسول

محمد بن عبد الله

ننتقل الآن من تلك المصور الحاشية - هصور الوثنية العنابية - إلى دين آخر في أمة أخرى - دين الإلهام في أمة العرب - وما هي إلا نقلة بعيدة وبون شاسع ، بل أي رفعة وارتقاء نراه هنا في أحوال العالم العامة وأفكاره .

في هذا الطور الجديد ، لم ير الناس في بطلمهم إلهاً ، بل رسولاً بوحى من الإله ، وهذه هي الصورة الثانية للبطل ، فأما الأولى وأقدم الجميع فقد ذهبت إلى حيث لا تعود أبداً ، وإن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عظم ، بل لنا أن نسأل أكان من أي ناس قط ، أنهم عبدوا إله رجل يرونه ويلبسونه ، فقالوا هذا خالق السكون ؟ أنا لا أظن ذلك ، إنما يقولون هذا القول في رجل يتذكرونه ، أو كانوا رأوه ، هل أن هذا أيضاً أن يكون قط ، وإن يؤله البطل من ثم فصاعداً ، ولو بلغ منتهى العظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلهاً غلطاً وحشية فاحشة ، ولكن فليقل إن الرجل العظيم ما برج في جميع الأزمان لغزاً من الألغاز ،

(١) الرسالة والنبوة عقدنا - معشر المساهمين - أمر غير مكتمل بل هي وحى إلهي وهبة من الله . لذلك ليس لنا أن نستعمل - كسمايين - هذه الألفاظ وإن استعملها المستشرق لأنها على قدر فهمه .

لا ندرى كيف ندرس ، ولا كيف نستقبله ونعامله ! ولعل أهم مزايا
جيل من الأجيال ، هي كيفية استقباله لرجله العظيم ، وسواء استقبلوه
كإله أو كنبى ، أو كيفما كان ، فذلك هو السؤال الأكبر ، ومن طريق
إجابتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم فى ذلك الأمر ، يمكننا أن
نبحر صميم حالتهم الروحانية كما لو كان من خلال نافذة .

فإن الرجل العظيم إذا كان مصدره واحداً - أعنى من ذات الله ،
فهو سند واحد : « أودين ، أو دلوثر ، أو جونسون ، أو بارنز ،
وأرجو أن أوفق إلى إقناعكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وأنه
لم يحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر ، إلا الطينة التى يكتسبونها
هم ، أو الطريقة التى يستقبلها بها أهل زمنهم .

من أكبر العار القول إن محمداً كذاب :

لقد أصبح من أكبر العار ، على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر
أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع
مزور ، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة
فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر
قرناً لشعوماتى مليون من الناس (١) أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا ،
أفكان أسدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاشت بها ، وماتت عليها هذه
الملايين الفاتمة الحصر والإحصاء أكذوبة وخذعة ؟ أما أنافلا أستطيع
أن أرى هذا الرأى أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله

(١) الآن أكثر من ألف مليون نسمة .

هذا الرواج ، ومصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا به ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعيب وأضلالة ، كان الأولى بها أن لا تتخلق .

فوا أسفاه ما أسوأ هذا الزعم ، وما أضعف أهله وأحقهم بالرائة والمرجة .

قلوب خبيثة :

وبعد ، فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات أن لا يصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء ، فإنها نتائج جيل كفر ، وعصر جهود وإلحاد ، وهى دليل على خبيث القلوب ، وفساد الضمائر ، وموت الأرواح في حياة الأبدان ، وأمل العالم لم يرق قط رأياً أكفر من هذا والام .

الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب .

فسكيف يوجد ديناً (١) ؟

وهل رأيتم قط معشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً ويلبسه ، دجياً والله ، إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب ، فهو إذا لم يكن علماً بخصائص الجهد والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه بيت ، وإنما هو تل من الانقاض ، وكثيب من أخلاط المواد ، نعم ، وليس جديراً أن يبق على دعائمه اثني عشر قرناً ، يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم كأنه لم يكن .

(١) الرسول ﷺ لم يوجد الدين ، وإنما هو مبلغ لهذا الدين .

قوانين الطبيعة :

والذى لأعلم أنه على المرء أن يسير فى جميع أمره طبق قوانين الطبيعة ، وإلا أبت أن نجيب طلبته وتعطيه ينيته ، وكذب والله ما يذيه أولئك الكفار ، وإن زخرفوه حتى خيلوه حقا ، وزور وباطل وإن زيفوه حتى أوصوه صدقا ، وسنة والله ، ومصاب أن ينخدع الناس شعوبا وأمتا بهذه الأضاليل ، وتسود السكينة وتقود بها تيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرت لكم من فيل الأوراق المسالية المزورة يحتمل لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ، ويحق مصابها بالغير لابه ، وأى مصاب وأبيكم ؟ مصاب كهباب الثورة الفرنسية وأشبابها من الثمن والحق ، تصيح بملء أفواهها وهذه الأوراق كاذبة !

الرجل الكبير :

أما الرجل الكبير خاصة ، فإنى أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً ، فإنى أرى الصدق أساسه وأساس كل ما به من فضل وهمة ، وعندى أنه ما كان رجل كبير :- ميرابو ، أو نابليون ، أو بارنز ، أو كرمويل - كفوا للقيام بعمل ما إلا وكان المصدق والإخلاص وحسب الثمر أول باعشاته على محاولة ما يحاول ، أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء .

الإخلاص الرجل الكبير :

بل أقول إن الإخلاص — الإخلاص الحرامى الكبير — هو

أول خواص الرجل العظيم كيفما كان ، لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذي لا يرجع يفتخر على الناس بإخلاصه ، كلا فإن هذا حقير جداً وأيم الله — هذا إخلاص سطحى وقبح — ومعرفة الغالب غرور وفنفة إنما إخلاص الرجل الكبير هو عما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه كلا ولا يشعر به ، بل لا يحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الإخلاص ، إذ أين ذلك الذى يستلج أنه يازم منهج الحق يوماً واحداً ؟ نعم ، إن للرجل الكبير لا يفتخر بإخلاصه قط ، بل هو لا يسأل نفسه أهى عفاصة ، أو بعبارة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه ، سواء أراد أم لم يرد ، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله — حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباعث مهما حاول ، هكذا خاف الله ذهنه ، وخافته ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته ، هو يرى الكون مدهشاً وعظيماً وحقاً كالموت ، وحقاً كالحياة. وهذه الحقيقة لا تفارقه أبداً ، وإن فارقت منظم الناس فساروا على غير هدى ، وخبطوا في غياهب الضلال والماية ، بل تفلت هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونسب عينيه كأنها مكتوبة بحروف من الذهب ، لا شك فيها ولا ريب ، ها هى ! ها هى — فاعرفوا هذا كم الله أن هذه هى أولى صفات العظيم ، وهذا حده الجوهري وتربيته ، وقد توجد هذه فى الرجل الصغير ، فهى جديرة أن توجد فى نفس كل إنسان خلقة الله ، وانكبتها من لوازم الرجل العظيم ، ولا يكون الرجل عظيماً إلا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلاً أصلياً صافى الجرهر كريم العنصر

— فهم رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا ، فقد نسجيه
 شاعراً أو نبياً أو إلهاً (١) ، وسواء هذا أو ذاك ، فقد نعلم أن قوله ليس
 بماخوذ من رجل فبه ، ولكنه صادر من أبواب حقائق الأشياء ، نعم
 هو يرى ما نحن كل شيء ، لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب
 الاحتمالات والعادات والمعتقدات ، وسنضيف الأوهام والآراء ،
 وكيف وأن الحقيقة التسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها .
 كلمات الرجل العظيم :

ثم إذا نظرت إلى كلمات العظيم ، شاعر آكن أو فيلسوفاً أو نبياً
 أو فارساً أو ملكاً ، ألا تراها حاضرة من الوحي (٢) أو الرجل العظيم في
 نظري مخلوق من مواد الدنيا وأشياء الكون ، فهو جزء من الحقائق
 الجوهرية للأشياء وقد دلّ الله على وجوده بعدة آيات ، أرى أن
 أحدها وأجدها هو الرجل العظيم الذي عليه الله العلم والحسكة ، فوجب
 علينا أن نهضى إليه قبل كل شيء .

وهل ذلك فلسفة نعدّ محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتدريج
 بالحيل والوسائل إلى بغية ، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان ، أو
 غير ذلك من الحقائق والصغائر ، وما الرسالة التي أداها إلا حق
 صراح ، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول (٣) ، كلا ما محمد

(١) هذا من الخاطى الذى لا يسيغه المسلم .

(٢) الوحي الإلهى لا يكون إلا الأنبياء وعن طريق الملائكة
 وليس ككلام الشعراء أو الفلاسفة .

(٣) هذا على حد فهمه ، أما عندنا فهو مرسل من الله تعالى لا من
 العالم المجهول .

بالكاذب ولا الملقق وإنما هو قلامة من الحياة قد تنظر عنها قلب
الطبيعية فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع ، ذلك أسر الله ، وذلك
فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمغ
كل باطل وتذهب حوض حجة القوم الكافرين .

هنوات الرجل العظيم :

وهب الحمد (عليه السلام) غامطات وهنوات — وأى لإنسان
لا ينظم له ما له منة الله وحمده — فإنه ليس له طاقة أية هنوات أو غامطات
أن توردى بذلك الحنية العكبرى ، وهي أنه رجل صادق ونبي مرسل .
وأما على العموم فيهم الهنوات ونجمل من الجزئيات سمجاً تستر
هنا الملقاق الكلية — الهنوات ؟ أي حسب القاس أنه يخلو منها إنساناً ؟
إن أكبر الهنوات عندي أن يحسب المرء أنه يرى من الهنوات ،
ما بال الناس لا يذكرون نبي الله تارداً ؟ ألم ير مكب داود أفطلع
الجرائم وأشنع الآثام (١) ؟ ألا ما أهني أسر الذنوب وأصغر خطر
الانغلاط — الجزئيات والقشور — إذا كان إهابها كريماً وسرها حراً
شريفاً ، وكان في التوبة النصوح ، والندم الصادق ، وخرج الضمير ،
ولذع اللذكرة ، أكبر مكفر للسيئات ، ومطهر لأردان الروح من أدران
الشوائب ، أليست التوبة أكرم أعمال المرء قاطبة وأقدس أفعاله ؟
إنما الأم الذنب هو كما قلت حسبان المرء أنه يرى من كل ذنب ، وكل
نفس هذا شأنها ، فهي في نظري مطلقة من الوفاء والمروءة ، بعيدة
عن النقي والبر والحق — أو هي ميتة ، أو لن تشأ فقل هي نقيّة نقاء
(١) وهذا النزول من أكاذيب اليهود وأعدائهم التي أشاعوها
بين الناس .

الزمل الجفاف الميت ، وإنى أحسب أن سيرة داود وتاريخه كما هو مدون في مواهبه (١) ، لأصدق آية على ارتفاع المرد في معارج المكرمات ، وعلى حربه العقل والهوى — حرباً طالما ينزوم فيها العقل هزيمة تضعه منزع جانبيه ، وتتركه لتي (٢) مشغياً (٣) دلي الانقراض ، ولسكنها حرب يفيد نهاية مشفوعة أبدأ بالبكاء والتوبة واستنهاض العزم الصادق ، الذى لا يبرح يتجدد بعد كل هزيمة .

يا ويل النفس الإنسانية ما أشد خرابها بين ضعفها وقوة شمواتها ، أو ليس من حياة الإنسان في هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل في استطلاعة المرد خلاف ذلك ؟ وهل يطيق في ظلمات هذه الحياة إلا الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من هيرة إلا لا شعري ، وبين هذه وتلك نجيب وعبرات وشبهق وذفرات ، وإنما الأمر المهم هو : أياظف بهواه بعد كل هذه الجاهدات ؟ وإنما لنصفح عن كثير من الجزئيات ما دام الباب حقاً ، والمسمي صحيحاً ، وما كانت الجزئيات وحدها لتعرفنا حقيقة إنسان (٤) .

العرب وصفة جزيرة العرب :

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة ، تسكن بلاداً كريمة ، وكأما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق ، فكان تمتشبه قريب بين وعورة جبالها وعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم ، وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدمائة ، كما كان يبدط من عبوس وجوه البلاد ، رياض شخراء وقيمان ذات أمواه وكلاء ،

(١) سبق القول أن هذا افتراء لا يعتمد عليه .

(٢) ملق . (٣) مقارب . (٤) هذا الكلام لا ينطبق على الأنبياء .

وكان الأعرابي صامتا لا يتكلم إلا فيما يعنيه ، إذ كان يسكن أرضا
قفراً يبابا خرساء ، تتخللها بحراً من الرمل يصطلى جرة النهار طوله ،
ويكافح بحراً وجوهه نفعات القرّ ليله .

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضتك

فيمضى ، وأما بالعشى فيخصر

ولا أحسب أناساً شأنهم إلا نفراد وسهل البعيد والقفار ، يهادثون
ظواهر الطبيعة ، ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكىء القلوب ،
حداد الحواطر ، خفاف الحركة ثاقبي النظر ، وإذا صبح أن الفرس
هم فرنسيوا المشرق ، فالعرب لا شك طليانته ، والحق أقول لقد كان
أولئك العرب قوماً أقوياء النفوس ، كأن أخلاقهم سيول دفاقة ، لها
من شدة حميمهم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذه
وأبيكم أم الفتنائل ، وذروة الشرف الباذخ ، وقد كانوا أحدهم يضيفه ألد
أعدائه فيكرم مشواه وينحدر له ؛ فإذا أزمع الرحيل خلع عابسه وحمله
وشيعه ، ثم هو بعد ذلك لا يحجم عن أن يقاتله متى عادت به إليه
الفرص ، وكان العربي أغاب وقته صامناً ، فإذا قال أفصبح .

ويزعمون أن العرب من عنصر اليهود ، والحقبة أنهم شاركون
اليهود في مرارة الجدة ، ونخالفهم في حلالة الشمايل ، ورقة الظرف .
وفي المعية الغريخة ، وأريحية السلب ، وكان لهم قبل زمن محمد (عليه
السلام) منافسات في الشعر ، يمحرونها بسوق عكاظ في جنوب البلاد ،
حيث كانت تقام أسواق التجارة ، فإذا انتهت الأسواق تفاشد الشعراء
القصائد ، ابتغاء جائزة تجعل للأجود قرىضا ، والأحكم قافية ، فكان
الأعرابي الجفاة ذوو الطباع الوعة ، يرتاحون لغفات التمهيد ،

ويعبدون أربانتها أية لذة فيتهاقون على المناشد كالفراش ، ويتهاكرون
التدين في العرب :

وأرى لهُوة العرب صفة من صفات الإسرافيين واضحة فيهم .
وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمعاملة بهذا نيرها إلا وهو التدين ، فإنهم
كانوا ، ما برحوا شبيهة يدى التمسك بدينهم كيفما كان ، كانوا
يعبدون السكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية ، يرونها مظاهر
للخالق ودلائل على عظمته ، فهم إذا وإن يك خطا فلا يس من جميع
وجوده ، فإنهم ذوات الله ما برحت وجهه ما رزأ له ودلائل عليه ،
ألسنا كما قد علمت نعتهم من مظهره للشاعر وفهيله ، أن يكون يدرك
ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أو أسرار الجمال الشعري ،
كما اصطليح الناس على تسميته ؟ وقد كان هؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم
أستار قبيلته ومرشداً لها ، سبيلاً يقتضيه ، يبايع عليه ورأي (١) ، ثم أليس
لدينا من البراهين الساطعة ، ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأي مسدد ،
وأى تقوى وإخلاص قد يكون هؤلاء البدو المفكرين ؟
سفر أيوب كتب في بلاد العرب :

وقد اتفق النقاد أن سفر أيوب ، أحد أجزاء التوراة كتابنا
المتقدس قد كتب في بلاد العرب . ورأى في هذا الكتاب فضلاً عن
كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر يراع ودونت يد كاتب (٢) ،
ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين ، لما فيه من عمومية

(١) هذا خلل بين النبوة وبين زعامة القبيلة .

(٢) هذا اعتراف منه بأن الدورة مكتوبة لا منزلة .

الأفكار مع شرفها وسورها — غمومية تمزجها الذم معب والتعجب ،
وحسب الكتاب شرفاً أن يكون يضرب بعرق في كل نفس ، ويمت
بصلة إلى كل قلب ، ويكون كالبيت ينضى إليه منتهى السبل ، وكالأرج
الضائع (١) نذازع ، جميع الأنوف ، والكتاب المذكور هو أول ما جاءنا
عن مسألة المسائل : حياة الإنسان رفق الله به في هذه الدار ، وقد
أتانا بذلك في أنصح بيان ، وأشد إخلاص ، وأحسن سهولة .

وإني لأتبع فيه العين البصيرة ، والقلب النافذ الفهم ، الحزم
الطسوع ، فهو الحق من حيث جهته ، والنظر الراسب في قرارة كل شيء
وصميم كل أمر — مادي روحاني ، ألا تذكر ما جاء فيه من ذكر
الفرس : والله الذي أودع الرعدة حنجرته (٢) ، وفهل ترى صهيله لإلقاه قهقهة
لرفية الراح ، هذا والله أروع الاستمارة ، وما أحسب أن في عالم
التشبيه كله ما يماثل ذلك أو يقاربه ، ذلك في الكتاب المذكور من
آيات الحزن الشريف ، والنعكس الحسن الجميل ، وما قرأت فيه قط
إلا حسبت فيه قلب الإنسانية يرتجف شجى ويجدأ ، ودمع الإنسانية
يفيض حرقة وكدأ ، فيا لها من رقة في شدة ، ورأفة في قوة ، وما
أشبهها إلا بسحر الليالي الصائمة رقة نسيم في جلال مشهد عظيم ، وإلا
والسكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار ، وما أحسب أن في
جميع النوراة شيئاً يدانيه فضلاً وقيمة .

الحجر الأسود والسكبة :

والحجر الأسود كان من أعم معبودات العرب ، ولا يزال لكن

(١) سماع المسك إذا انتشرت رائحته بقوة .

(٢) أى أودع في حنجرة الفرس قوة الرعدة .

بمكة في البقاء المسمى « السكبة » . وقد ذكر المؤرخ الرومانى « سيبلاوس » السكبة فقال : إنها كانت في مدته أشرف معايد العالم طراً وأقدمها ، وذلك قبل الميلاد بنمسين عاماً ، وقال المؤرخ « سلاستاردى ساسى » إن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات ، فإذا صح ذلك (١) فلا بد أن إذ أنا قد بهر به ساطعان الجو ، والحجر موجود الآن الى جانب البئر زمزم ، والسكبة مبنية فوقها .

بئر زمزم :

والبئر كما تعلمون منظر حيثما كان سار مفرح ، ينبس الماء من الحجر الأصم ، كالحياة من الموت ، لما بالسك بها إذا كانت تفيض . ولقد اشتق لها اسمها « زمزم » من صوت تنجرها وهديرها ، والعرب تزعم أنها انبجست تحت أقدام هاجر وإسماعيل فيضاً من الله وشفاً ، وقد قدسها العرب ، والحجر الأسود ، وشادوا عليها السكبة منذ آلاف من السنين .

السكبة :

وما أعجب هذه السكبة وأعجب شأنها ؟ فهي في هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها السكبة السوداء التي يسلها السلطان كل عام ، يبلغ ارتفاعها سبعاً وعشرين ذراعاً حولها دائرة مزدوجة من الحديد وبها صفوف من المصابيح وبها نقوش وزخارف جميلة ، وستوقد تلك المصابيح الليلة وتشرق تحمى اليوم المشرفة ، فنعم أثر الماضي

(١) الحجر الأسود من حجارة الجنة كما أخبرنا الرسول ﷺ في

صحيح الحديث .

هي ونعم ميراث الغابر ، هذه كعبة المسلمين ، ومن أقصى المشرق إلى
أخريات المغرب ، — من دهي إلى مراکش تتوجه أبصار العبيد
المجهر من عباد الله المصاين شطارها ، وتهفو قلوبهم نحوها ، خمس مرات
هذا اليوم وكل يوم ، نعم لدى والله من أجل مراكر المعمورة وأشرف
أقطابها .

ومن شرف البحر زهزم ، وقديسية الحجر الأسود ، ومن حجج
القبائل إلى ذباك المسكن كان منشأ مدينة مكة ، ولقد كانت هذه المدينة
وقتاً ما ذات بال وشأن ، وإن كانت الآن قد فقدت كثيراً من أهميتها (١) ،
وموقعها من حيث هي مدينة سيئ جداً ؛ إذ هي واقعة في بطن من
الأرض كثير الرمال ، وسط هضاب قفرة ، وللال بعيدة ، على مسافة
بعيدة من البحر ، يتأثر بها جميع ذخايرها من جهات أخرى حتى الخبز ،
ولسكن الذي اضطر إلى إيجاد هذه المدينة هو أن كثيراً من الحجيج
كانوا يطالبون المأوى ، ثم إن أما كن الحج ما زالت من قديم الزمان
تسند هي التجارة ، فأول يوم يأتى فيه الحجيج تلتقى فيه التجار كذلك
والباعة ، والناس متوجدون أنفسهم يجتنبون لغرض من الأغراض ، رأوا
أنه لا بأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع ، وإن لم
يسكن في المسكن ، لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب بأجمعها ،
والمركز لكل ما كان من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر ، بل
وبين إيطاليا . وقد بلغ سكانها في حين من الأحيان مائة ألف نسمة
بين هائمين ومشتريين وموردين لبضائع الشرق والغرب ، وباعة

(١) بل لم تفقد قيمتها في أفئدة المسلمين .

للسأكولات والغلال ، وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية
الارستوقراطية ، عليها صبغة دينية ، وذلك أنهم كانوا ينتخبون لها
بطريقة غير منظمة ، عشرة رجال من قبيلة عظمى ، فيسكون هؤلاء
حكام مكة وحراس السكبية ، وكانت لقريش في عهد محمد (وأسرة
محمد من قبيلة قريش) وكان سائر الأمة مبدداً في أنحاء تلك الرمال ،
قبائل تفصل بين الواحدة والأخرى البعيد والنفار ، وعلى كل قبيلة أمير
أو أسراء . وبما كان الأمير راعياً أو ناقل أمتعة ، ويكون في الغالب
خازياً ١١١ وكانت الحرب لا تخدم بين بعض هذه القبائل وبعضها ،
ولم يكن يؤلف بينهم سلف على إلا التقاؤهم بالسكبية ، حيث كان
يجمعهم على اختلاف وثنيتاتهم مذهب واحد ورابطة الدم واللغة ، وعلى
هذه الطريقة عاش العرب دهوراً خاملة الذكر غامضى الشأن - أناساً
ذرى مناقب بجيلة وصفات كبيرة ، ينتظرون من حيث لا يشعرون ،
اليوم الذى يشاد فيسبه بذكرهم ويسلمون في الآفاق صيتهم ،
ويرتفع إلى غنان السماء صوتهم ، وما ذلك ببعيد ، وكأنما
كانت وثنيتاتهم قد وصلت إلى طور الاضمحلال ، وأذنت بالسقوط ،
وقد حدثت بينهم دواعى اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى
القرن غوامض أنباء عن أكبر سعادة وقعت على وجه البسيطة —
أعني حياة المسيح ووفاته (١) وهى التى أحدثت انقلاباً هائلاً في جميع
سكان العالم — فلم تعد هذه الأنباء تأثيرها من الفوران في أحشاء
الأمة العربية .

مولد محمد ونشأته :

وكان بين هؤلاء العرب الذى تلك حالهم ، أن ولد محمد (عليه

(١) الصحيح دفعه كما أخبرنا القرآن .

السلام) عام ٨٠٠ ميلادية ، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش ، وقد مات أبوه عقب مولده ، ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه - وكان لها شجرة بالجلال والفضل والعقل ، فقام عليه جده وهو شيخ قد ناهز المائة من عمره وكان هالهاً هاوياً ، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه ، فأبصرت عينه الحرمة في محمد هورة عبد الله ، فأحسب اليتيم الصغير بذله عليه ، وكان يقول ينبغي أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجليل ، الذي قد فاق سائر الأسر والقبيلة حسناً وفضلاً ، ولما حضرت الشيخ الوفاء والغلām لم يتجاوز العامين ، عهد به إلى أبي طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده ، فرباه عنه - وكان رجلاً قلاباً كما يهمل بذلك كل دليل - على أحسن نظام عربي .

سفره للشام والتقاؤه بالراهب بحيرا :

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبهه . وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً مقاتلاً يتبع عمه في الحروب (١) ، خير أن أهم أسفاره وبما كان ذلك الذي حدث قبل هذا التاريخ بهضج سنين - رسالة إلى مشارف الشام ، إذ وجد الفقه نفسه هناك في عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً في نظره ، أدنى الديانة المسيحية (٢) ، وإلى اسمت أدري ما ذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس « بحيرا » الذي زعم أن أبا طالب ومحمداً سكنا معه في دار ، ولا ماذا

(١) حرب الفجار ، حرب كانت بين قريش ومن معها من كثافة وقيس عيلان وكان النبي ﷺ في العشرين من حين حضر هذه الحرب مع عمومتة . (٢) هذا من العهد الرفيع ؛ فإن النبي ﷺ ذهب مع عمه إلى طالب الذي ذهب للتجارة ، وكان بحيرا على عقيدة أن عيسى رسول الله ، ويشر أبا طالب بأن من معه هو خاتم الرسل .

هسهام يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أى راهب ما (٩)، فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشر ، ولم يعرف إلا لغته ، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهداتها لم يكن في نظره إلا خليطاً مشوشاً ، من أشياء يكرها ولا ينفهمها ولكن الغلام كان له عينان ، ثاقبتان ، ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون ، فأقامت في ثفايا ضميره ولو غير مفهومة ريثما ينضجها له كرم الغدادة ومر العشى ، وتحلم لها يد الزمن يوماً ما ، فتخرج منها آراء وعقائد ، ونظرات نافذات ، فاعمل هذه الرحلات الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير ، وفوائد جمة .

أمية محمد :

ثم لا ننسى شيئاً آخر ، وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً ، وكانت صناعة الخط حديشة العهد إذ ذاك في بلاد العرب ، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها ، وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينه ، ويتلقاه بفؤاده ، من هذا السكون العديم النهاية ، وعجيب وأيم الله أمية محمد ، نعم أنه لم يعرف من العالم ، ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يهصره بنفسه ، أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب ، ولم يضطره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم ، لا قديمها ولا حديثها ، لأنه كان بنفسه غنياً عن كل ذلك ، ولم يقتبس علم من نور أى إنسان آخر ، ولم يغترف من مشاهد غيره ، ولم يكن في جميع أشباهه من الأنبياء

(١) كانت حياته ^{بالحق} وصباياه ورحلاته وخبراته وتجاربته تهيمه انلقية الوحي وتربية له ، وليس له في ذلك من معلم إلا الله .

والعظماء - أولئك الذين أشبههم بالمصاييح الهادئة في ظلمات الدهور -
 من كان بين محمد وبينه أدنى صلة ، وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء
 الصحراء ، وإنما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره .
 صدق محمد منذ طفولته :

واو حظ عليه منذ فتائه (١) أنه كان شاعراً مفكراً ، وقد سماه رفقاءه
 الأيمن - رجل الصدق والوفاء - الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره ،
 وقد لاحظوا أن ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة ، ولما
 لا عرف عنه أنه كان كثير الصمت ، يسكت حيث لا موجب للكلام ،
 فإذا طنن ، فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة ، لا يتناول
 غرضاً فيتركه إلا وقد أثار شبهته ، وكشف ظلمته ، وأبان حقيقته ،
 واستثار دفينته ، وهكذا يكون الكلام وإلا فلا ، وقد رأيناه طول
 حياته ، رجلاً راسخ المجد ، صارم المزم ، بعيد الهمة ، كريماً جراً
 ووفاء تقياً فاضلاً حراً - رجلاً شديد الجهد مخلصاً ، وهو مع ذلك
 سهل الجانب ، لين المريقة (٢) ، جهم البشر (٣) والطلاقة ، حميد العشرة ، حلوق
 الإيناس ، بل ربما مازح وداعب .
 الابتسام الصادق والكاذب :

وكان على العموم قضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ،
 لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله -
 هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا ، وكان محمد جميل الوجه وضيق الفالمة
 (١) أي فتوته . (٢) لين : يسكون اللان أي يستعمل الرقة .
 واللين رغم قوته . (٣) أي بشوش .

حسن القامة ، زاهى اللون^(١) ، له عينان سوداوان ، تلتأ لأن ، ولانى
 لأحسب فى جبينه ذلك العرق الذى كان ينفخ ويسودّ فى حال غضبه
 كالعرق المقوس الوارد فى قصة والقفازة الجراء لوالتر سكوت ، وكان
 هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ، واسكنه كان أبين فى شمد وأظمر ،
 نعم لقد كان هذا الرجل ساد الطابع ، نارى المزاج ، واسكنه كان عادلا
 صادق النية ، كان ذكى اللب ، شهم الفؤاد :

لو ذعياً كأنما بين جنديي ه مصابيح كل ليل بيم
 عتلتاً ناراً ونوراً ، رجلاً عظيماً بفطرته ، لم تشقه مدرسته ،
 ولا هنيه معلم ، وهو فنى عن ذلك كالأشوك استغنت عن التفتيح ،
 فأدى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء .

عيشته الخاصة وزواجه بـ خديجة :

وما ألت وما أوضح قصته مع خديجة ، وكيف أنه كان أولاً يسافر
 فى قهجات لها إلى أسواق الشام ، وكيف كان يسهج فى ذلك أقوم مناهج
 الحرم والأمانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد ، وحبها يعمو ، ولما
 زوجت منه كانت فى الأربعين ، وكان هو لم يتجاوز الخامسة والشرين
 وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحه ، ولقد عاش مع زوجته هذه على
 أتم وفاق ، وألفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحدها .
 وما يقال دعوى المائنين (أن محمد لم يكن صادقاً فى رسالته بل
 كان ملفقاً مزوراً) أنه قضى عتوان شبابه ، وحرارة شبابه ، فى تلك

(١) كان ^{عنه} أدهر اللون .

للعبشة الهادئة المطمئنة ، لم يحاول أنهاء أحداث ضجة ولا دوى ،
 بما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطنة ، ولما يك إلا بعد الأربعين
 أن تحدث برسالة سماوية ، ومن هذا التاريخ تبتدىء حوادثه وشواذه ،
 حقيقية كانت أو مختلفة (١) ، وفي هذا التاريخ توفيت خديجة ، نعم لقد
 كان حتى ذلك الوقت يقنع بالعيش الهادئ الساكن ، وكان حسبه من
 الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه ، وجميل ظفونهم به ، ولم يك
 إلا بعد أن ذهب الشباب ، وأقبل المشيب ، أن فار بصدره ذلك
 الركان الذى كان هاجعا ، وثار يريد أمراً جالياً وشاناً عظيماً .

محمد يرى من الطمع الديوى :

ويزعم المتعصبون من النصارى والملاحدون أن محمداً لم يكن يريد
 بقيامه إلا الشهرة الشخصية ، ومنما خراجاه والسلطان ، كلاهما لم الله ،
 لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن الفجار والفلوات ، المتوقد
 المقلزين ، المنظم النفس ، المملوء رحمة وخيراً ، وحسناً وبراً ، وحكمة
 وحجج (٢) ، وأربة ونهى — أفكار غير الطمع الديوى ، ونوايا خلاف
 طلب السلطة والجاه .

محمد مخلص نافذ البصيرة :

لا يرضى بالاصطلاحات السكاذبة

وكيف وتلك نفس صامتة كهيئة ، ودجل من الذين لا يمكنهم
 إلا أن يكونوا مخلصين جهادين ، فبينما نرى آخرين يرضون بالاصطلاحات

(١) أى سواء حدثت أو اختلقتها عليه قریش .

(٢) الحجج : العقل .

الكاذبة، يسرون طبق الاعتبارات الباطلة، إذ ترى محمداً لم يرض أن
يلتفح بمألف الكاذب ويتوشح بمتبع الأباطيل، لقد كان منفرداً
بفكره العظيمة، وبحقائق الأمور والكائنات، لقد كان سر الوجود
يسطوع لعينيه كما قلت بأهواله وعخوفه، وروافقه ومباهره، لم يك
هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فسكان لسان حال ذلك السر
المائل يقاچيه «ها أنا ذا» فمثل هذا الإخلاص لا يتخلو من معنى إلهي
مقدس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب
الطبيعة، فإذا تكلم فشكل الأذان برغمها صاغية، وكل القلوب واعية،
وكل كلام ما هذا ذلك هباء وكل قول جفاء، وما زال منذ الأعوام
الطوال - منذ أيام رحلاته وأسفاره يحول بخاطره آلاف من الأفكار:
ماذا أنا؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذي أعيش فيه، والذي يسميه
الناس كوناً؟ وما هي الحياة؟ وما هو الموت؟ وماذا أعتقد؟ وماذا
أفعل؟ فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شتار يخ طود الطور،
أو تلك القفار والفلوات؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار، واختلاف الليل
والنهار، ولا النجوم الزاهرة، والأنواء الماطرة، لم يجبه لا هذا ولا
ذاك، وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل والاما أودع الله
فيه من سره !

ومذا ما ينبغي لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه، فقد أحسن
ذلك الرجل القفرى، أن هذه كبرى المسائل، وأهم الأمور، وكل
شيء - سيم الأهمية في جانبها، وكان إذا بحث عن الجواب في فرق اليونان

الجمالية أو في روايات اليهود المبسطة، أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجد
الرجل العظيم ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ولا يقيم

بالمعادات والتقاليد :

وقد قلت إن أهم خصائص البطل ، وأول صفاته وأخوها هي أن
ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ، فأما العادات والاستعدادات
والاعتبارات والاصطلاحات فينبذها ، جيدة كانت أو رديئة ، وكان
يقول في نفسه : « هذه الأوثان التي يعبدها القوم لابد من أن يكون
وراءها ودونها شيء ما هي إلا ومن له (١) ، وإشارة إليه ، وإلا فهي باطل
وزور وقطع من الخشب لا تقدر ولا تنفع ، وما لهذا الرجل
والأصنام ، وأنتى تؤثر في مثل أولئك ولو مرصعت بالنجوم لا بالذهب ،
ولو عبدها الجميع (٢) من عدنان ، والآقيال (٣) من حمير (٤) ؟ أى خير
له في هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ لأنه في بلادهم في واد ، هم يسمون
في ضلالتهم وهو مائل بين يدي الطبيعة قد سطعت لهيبه الحقيقية
الهائلة ، فإذا إن يحميها ، وإلا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين .
فاتجربها يا محمد ! أجب لابد من أن توجد الجواب ، أيزعم السكابر أن
أنه الطمع وسحب الدنيا هو الذي أقام محمد وآثاره ؟ سحق وأيم الله
وسخافة وهو س هذا الزعم ، أى فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد
العرب ، وفي تاج قيصر وصولجان كسرى وبيسيع ما بالارض من
(١) ما كان لا يظن أن وراء الأصنام شيئاً ، وإنما كانت بتقديده
أنها باطل . (٢) جمع جمعها وهو السيد (٣) جمع قيل وهو الملك .
(٤) بكسر الحاء وسكون الميم ملوك اليمن .

تبيحان وصوالجة ، بأن تصير الممالك والديار جميعها بخد
حديق من الجهر ؟ أفى مشيخته مكة ، وفة غنيب منفض الطرف ، أوفى ملك
كسرى رواج ذهب الثوبية ، منجاة للمرء ومظرة ؟ كلا - إذن فلنصرب
صفحة عن مذهب الجورين القائل أن محمداً كاذب ولدمة مرافقهم
حاراً وسببة وسخافة وحقة وإنزلاً بنفوسنا عنه ولنرفع .

اختلاء محمد بنفسه واعتزاله الناس في شهر رمضان :

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان ، فينقطع إلى
السكون والوحدة ، ذأب العرب عاداتهم ، ونعمت العادة ، ما أجل وأرفع ،
ولا سيما لرجل كمحمد ، لقد كان يخلو إلى نفسه فيما جى ضميره ، صامعاً
بين الجبال الصامته متفتحاً صدره لأصوات السكون الغامضة الخفية ،
أجل حبذا تلك عادة ونعمت .

ابتداء البهشة :

فلما كان في الأربعين من عمره ، وقد خلا إلى نفسه في نار جهنم
(سحره) قرب مكة شهر رمضان ، لينسكب في تلك المسائل الكبرى ،
إذا هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم وكان قد اصطحبها ، ذلك العام
وأولها قريباً من مكان مخلوقه ، فقال لها إنه بفضل الله قد استعجل
فانفض السر ، واستشار كامن الآراء ، وأنه قد أنارت الشبهة ، وانجلي
الشك وبرج الخفاء ، وأن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أختبا با
حقيرة ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما سواه
باطل ، خلقنا وبرزقنا ، وما نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظن له

(١) أى بعد زواجه منها .

وستار يحجب النور الابدى ، والرواق السرمدى ، الله أكبر
ولله الحمد .

حقيقة الإسلام وكلمة (جوته) فيه :

ثم الإسلام وهو أن نسلم الأمر لله ، ونذعن له ونسكن إليه وننزل
عليه ، وأن القوة كل القوة هي في الاستئمان للحكمة والخضوع لحكمته ،
والرضا بقسمته ، أية كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ، ومهما يصيبنا
به الله ولو كان الموت الإرقام ، فلنسلمه بوجه مبسوط ، ونفس مفتحة ،
راضية ، ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو .

كلنا مسلمون :

ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم (جوته) : « إذا كان ذلك
هو الإسلام ، فكلنا إذن مسلمون » نعم كل من كان فاسلاً شريفاً ،
الخلق فهو مسلم ، وقدماً قبيلاً ، أن منتهى العقل والحكمة ليس في مجرد
الإذعان للضرورة - فإن الضرورة تخضع المرء برغم أنه ، ولا فضل
فيما يأتيه الإنسان مكرماً - بل في اليقين بأن الضرورة الألفية المرة
هي خير ما يقع للإنسان ، وأفضل ما يناله ، وأن لله في ذلك حكمة
تطاف عن الأفهام وتذق عن الأذهان ؛ وأنه من الافق والسخف أن
يجهل الإنسان من دماغه المنكسر ، ميزاناً لذلك العالم وأحواله ، بل
عليه أن يعتقد أن السكون قانوناً عادلاً ، وإن غاب عن إدراكه ، وأن الخير
هو أساس السكون والصلاح روح الوجود ، والنفع لباب الحياة ، نعم
عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكوت وتقوى .

أقول وما زالت هذه الخطة المثلى ، والمذهب الأشرف الأطهر ، وما زال الرجل مصيباً وظافراً ، وحرّاً وكريمّاً وسائراً على المنهج الأقوم وسالكاً سبيل السعادة ، وما دام مهتماً بمحبل الله ، متمسكاً بقانون الطبيعة ، الأكبر الأمكن ، غير مهال بالتوانين السطحية ، والظواهر الوقتية ، وحسابات الربح والخسارة ؛ فهو ظافر إذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهري - قطب رحي السكون ومحور الدهر - وليس بظافر إذا فعل غير ذلك ، وحقاً إن أول وسيلة تؤدي إلى اتباع هذا القانون هو الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح ، بل لا شيء غيره صالح ؛ وهذا يا إخواني هو روح الإسلام ؛ وهذا هو أيضاً روح النصرانية ، والإسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية ؛ والإسلام والنصرانية يأسراننا أن نتوكل على الله قبل كل شيء (١) ، وأن نفيطم النفس عن الشهوات وننهي القلب عن الهوى ، وأن لا نطمح في عنان النى ، وأن نصبر على البث والأسى ، وأن نعرف أننا لا نعرف شيئاً ، وأن نرضى من الله كل ما قسم ، ونعدّها يداً بيضاء ، ونعمة غراء ، ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ، ونقول : « إنا بقسمة الله راضون ، ولو كان ما قسم لنا المنون » .

الوحي وجبريل :

فن فضائل الإسلام : تصحية النفس في سبيل الله ، وهذا أشرف ما نزل من السماء على بنى الأرض ، نعم هو نور الله قد سطع في روح ذلك الرجل ، فأزاد ظلماتها ، ورضياها باهر ، كئيف تلك الظلمات التي

(١) الأصح أن النصرانية الصحيحة هي الإسلام دين عيسى عليه السلام.

كانت تؤذن بالחסران والهلاك، وقد سماه (١) محمد (عليه السلام) وحياً
 و (جبريل) ، وأيضاً استطيع أن يحدث له اسماء؟ ألم يجيء في الإنجيل أن
 وحى الله يهبنا الفهم والإدراك؟ ولا شك أن العلم والفناء إلى صميم الأمور
 وجواهر الأشياء أسر من أغضض الأسرار لا يكاد المنطقة يرون يلمسون
 منه إلا قشوره ، وقد قال نوقا ليس : (أليس الإيمان هو المعجزة
 الحقة الدالة على الله ؟) فشعور محمد اذا اشعلت روحه بالهيب هذه
 الحقيقة الساطعة ، بأن الحقيقة المذكورة هي أهم ما يجب على الناس علمه
 لم يك إلا أمراً بديهياً .

معنى كلمة محمد رسول الله :

وكون الله قد أنعم عليه بكشفها له ، ونجاء من الهلاك والظلمة ،
 وكونه قد أصبح منظاراً إلى إظهارها للعالم أجمع - هذا كله هو معنى
 كلمة (محمد رسول الله) وهذا هو الصدق الجلي والحق المبين .

ففضل السيدة خديجة ، وعلى ، وزيد بن حارثة :

ويخيل إلينا أن الصالحة سديجة أصغت إليه في دهشة وشك ، ثم آمنت
 وقالت « أى وربى إنه لحق » وتخيّل أن محمداً شكر لها ذلك الصنيع .
 ورأى أن في إيمانها بكاملته المخصوصة المقدوفة من بركان صدره ، جيلاف فوق
 كل ما أسدت إليه من قبل ، فإنه ليس أروح لنفس المراء ، ولا أئاج لحشاه
 من أن يجد له شريكاً في اعتقاده ، ولقد قال نوقا ليس : « مارأيت شيئاً قط
 أكد ليقينى ، وأوثق لاعتقادي من انضمام إنسان آخر إلى رأيي ، نعم

(١) بل لم يسمه محمد ﷺ وحياً ، وإنما هو وحى الله .

لأنه لم ينجح أغراً ، ونعمة وفيرة ، وكذلك ما انفك محمد يذكر خديجة حتى لقي ربه ، حتى أن عائشة — زوجة الصغيرة المحبوبة تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طوّل حياتها — هذه السيدة البارة الجمال والفضيلة ، سألته ذات يوم : « أليست الآن أفضل من خديجة ؟ » لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جاهداً ، وأراك تتجنّب أكثر مما كنت تحبها : « فأجاب محمد : كلا والله لست أفضل منها وكيف وهي التي آمنت بي والسكل كافر ومفكر ، ولم يك لي في هذا العالم إلا صديق واحد — وهذا الصديق هي . « وقد آمن به مولاه زيد بن حارثة ، وعلى (عليه السلام) ، ومولاه الثلاثة أول من آمن به .
الدعوة إلى الإسلام وما قاله محمد في سبيلها :

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذلك ، فما كان يصادف إلا جوداً وسخريّة ، حتى أنه لم يؤمن به في خلال ألاء أعوام إلا ثلاثة عشر رجلاً وذلك منتهى البطء وبؤس التشجيع ، ولكنه المدة تظن في مثل هذه الحال . وبعد هذه السنين الثلاث أدب^(١) ما ذبّه لأربعمين من ذوي قرابته ، ثم قام بينهم خطيباً ، فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها في سائر أنحاء السكون وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة ، فأبهمهم إليه يده .
 وبأخذ بناصره ؟

سروة على ونجدته :

وبينا القوم صامتون حيرة ودهشة وثب على (كرم الله وجهه) - وكان غلاماً في السادسة عشرة - وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح

(١) أدب بفتح الالف والdal : صنع طعاماً ودعا إليه الناس .

في أحد طابحة ، أنه ذلك النصارى والظهير ، ولا يحتمل أن القوم كانوا متابعين محمداً ومعاديه ، وكأهم من ذوى قرابته ، وفيهم أبو طالب هم محمد وأبو علي ، ولكن رؤية رجل كمل أمي يعينه غلام في السادسة عشرة يقومان في وجه العالم بأجمعه ، كانت مما يدعوا إلى العجب المذهل فانقض القوم ضاحكين ، ولكن الأمر لم يك بالمضحك ، بل كان نهاية في الجذ والخطر ، أما على فلا يسعنا إلا أن نحبه ونعشقه ، فإنه فقي شريف القدر ، كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً ، ويناطق فؤاده نجدة وحاسة ، وكان أشجع من ليث ، ولكنها شجاعة مدروجة برقة ولطف ، ورأفة وحسان ، جدير بها فرسان الصليب في القرون الوسطى ، وقد قتل بالكوفة خيلة ، وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله ، حتى حسب كل إنسان عادلاً مثله ، وقال قبل موته حينما أومر في قتاله : « إن أعش فالأمر لي ، وإن أمت فالأمر لكم ، فإن أقررتم أن تقتصوا فضرة بضربة ، وإن تعفوا أقرب إلى التقوى » .

استيلاء قريش من عمل محمد :

وكان في عمل محمد هذا إساءة ولا شك إلى قريش ، حواس السكينة وخدمة الاصنام ، وانضم إليه منهم رجلان أو ثلاثة أولو بأس ونفوذ ، وسرى أمر محمد ببطء ولكنه سرعان على كل حال ، وكان عمله بالطبع صعب الواقع لدى كل إنسان ، وجعلوا يقولون من هذا الذي يزعم أنه أحقل مما جميعاً ، والذي يعنفنا ويرميننا بالحق وعبادة الخشب ؟

نصيحة أبي طالب وعزيمة محمد :

وأشار عليه أبو طالب أن يسكنتم أمره ويؤمن به وحده ، وأن يكون
لله من نفسه ما يشغله عن العالم ، وأن لا يسخط القوم ويشين غنابهم عليه
فيختار (١) بذلك حياته ، فأجابه محمد : « والله لو وضعوا الشمس في يميني
والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أُو
أهلك فيه ما تركته » ، كلا فإن في هذه الحقيقة التي جاء بها ، شيئاً من
عصر الطبيعة (٢) ذاتها ، لا تفضله الشمس ولا القمر ، ولا أي مصنوعات
الطبيعة ، ولا بد لتلك الحقيقة من أن تظهر ، برغم الشمس والقمر ،
مادام قد أراد أن تظهر ، برغم قرينيه جميعاً ، وبكره سائر الفلاقي
والكائنات ، نعم لا بد من أن تظهر ، ولا يسعها إلا أن تظهر ، بذلك
أجابه محمد ؛ ويقال إنه « اغرورقت عيناه » اغرورقت عيناه لفقد
أحسن من عمه البر والشفقة ، وأدرك وعورة الحال ، وعلم أنه أمر ليس
بالحين الالين ، وليسكنه أمر صعب المراس مرّ المذاق .

مواصلة محمد الدعوة واحتماله الشدائد :

واستمر يؤدي الرسالة إلى كل من أهدى إليه ، وبشهر مذهبه بين
الحبيصين ، مدة لثامنهم بمكة ؛ ويستميل الأتباع هنا وهناك ، وهو ياتي
أنباء كل ذلك منابذة ومناوأة ومناصبة بالعداوة ؛ وبجاهرة وشرأ باديأ
وكامنأ ؛ وكانت أقدار به تهميه وتدافع عنه ؛ وليسكنه هزم هو وأتباعه
على الهجرة إلى الحبشة ، فوقع خبر ذلك المزم من قرين أسوأ موقع ،

(١) أي يعرض حياته للخطر . (٢) بل هي من مخلوقات الله .

وضاعت حنقهم عليه فنصبوا له الأشرار ؛ وبشوا له الحبائل ؛ وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمداً بأيديهم ؛ وكانوا خديجة قد توفيت وتوفي أبو طالب ؛ وتعلمون أصلاً أن محمداً ليس بحاجة إلى أن نرئى له ولحال الشكراء إذ ذاك ومقامه الضئيل ، وموقفه الحرج ؛ ولكن اعرفوا معنى أن سألته إذ ذاك من الشدة والبلاء لم ير مثلاً لإنسان قط ؛ فلقد كان يخفي في الكهوف ويفر متفكراً إلى هذا المكان ؛ وإلى ذاك ؛ لا مأوى ولا نجوى ؛ ولا ناصر ؛ تتمده الهللكات ؛ وتفخر له أفراحها المنايا ؛ وكان الأمر يتوقف أحياناً على أدنى صغيرة - كاجتماع فرس من أفراس أتباع عمد - فلو حدث ذلك لانتاع كل شيء ؛ ولكن أمر محمد - ذلك الأمر العظيم ما كان لينتهي على مثل تلك الحال .

تألب قريش على محمد ليقتلوه ، وهجرتهم إلى المدينة :

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته ؛ وقد وجد أعداءه متآلبين عليه وكانوا أربعين رجلاً ؛ كل رجل من قبيلة ؛ اتفروا به ليقتلوه وألنى المقام بمكة مستحيلاً ، هاجروا إلى يثرب حيث التف به الأنصار ، والبلدة تسمى الآن « المدينة » أى مدينة النبي ، وهى من مكة على ٢٠٠ ميل تقويم وسط صحور وقفار ، ومن هذه الهجرة يبتدىء التاريخ فى المشرق والسنه الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية ، وهى السنه الخامسة والخمسون من عمر محمد ، فترى أنه كان قد أصبح إذ ذاك شيخاً كبيراً وكان أصحابه يوتون واحداً بعد واحد ، ويخلون

أمامه مسلحاً وهرأ ، وسبيلاً قفراً وخطة نسكرأ موحشة . فإذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعاً ومحركاً ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه ، فبهيات أن يجد بأوقات الأمل ، فيجأ يصدق به من حوابس الخطوب ، ويحيط به من كالحات الخن والملمات ، وهكذا شأن كل إنسان في مثل هذه الأحوال .

الرد على الماتلين بأن الإسلام انتشر بالسيف :

وكانت نية محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن ينشر دينه بالحسكة ، والموعظة الحسنة فقط ، فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية ، وعدم الاصغاء إلى صوت ضميره وصيحة ليه ، حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة - هزم ابن الصحرأ على أن يدافع عن نفسه ، دفاع رجل ثم دفاع عربي ، ولسان حاله يقول : أما وقد أبعد قريش إلا الحرب ، فليقتلوا أي فتيان هيباء نحن ، وحقاً رأى فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق ، وشرية الصدق ، وأبوا إلا تمادياً في ضلالهم يستبجحون الحريم ، ويهتكون الحرمات ، ويسلبون وينهبون ، ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها ، ويأتون كل لثم ومنكر ، وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة ، فأبوا إلا عتوا وطغفأنا ، فليجمل الأمر إذن إلى الحسام المهند ، والوشيع المقوم ، وإلى كل سرودة حصداء ، وسابحة جرداء ، وكذلك تعفى محمد بقية عمره وهي عشرين سنة أخرى في حرب وجهاد ، لم يسترح غمضة عين وكانت النتيجة ما تعلمون (١) ؟

(١) كلامه السابق يؤخذ بهانراً لأنه إن أنصف الإسلام في نقطة يسمى إليه في أخرى .

واقعد قليل كثير آ في شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فإذا جعل
الناس ذلك دليلاً على كذبه ، فشد ما أخطأوا وساروا ، فهم يقولون :
ما كان الدين لينشر لولا السيف ، ولكن ما هو الذي أوجد السيف ؟
هو قوة ذلك الدين وأنه حق ، والرأى الجديد أول ما يذنب ما يكون
في رأس رجل واحد ، فالذي يعتقده هو فرد — فرد ضد العالم أجمع .
فإذا تناول هذا الفرد ميمها وقام في وجه الدنيا والله يضيح . وأرى
على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة ، حسبما تقتضيه الحال .
أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنب أن تستخدم السيف أحياناً ؟
وحسبكم ما فعل شارلمان بقبايل السكسون ، وأنا لا أحفل أكان انتشار
الحق بالسيف ، أم باللسان أم بأية آلة أخرى .

لا يسبح إلا الصحيح :

فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالانار .
لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا
ما كان يستحق أن يهزم ، وليس في طاقتها قط أن ألفى ما هو خير
منها ، بل هو أحمق وأدنى ، فإنها حرب لا حكم فيها إلا الطبيعة ذاتها ،
ونعم الحكم ما عدل وما أقسط ، وما كان أعين جذوراً في الحق ،
وأذهب أعراقاً في الطبيعة ، فذلك هو الذي ترويه بعد الهرج والمرج
والفضواء والجلابة ، نامياً زاكياً وحده .

عدل الطبيعة :

أقول الطبيعة أعدل حكم ، بل ، ما عدل وما أعدل وما أرحم وما
أحكم ذلك تأخذ حبوب القمح لتجعلها في بطن الأرض ، ورعا كانت
هذه الحبوب مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب ، وسائر أحصاف
الافئدة ، ولكن لا بأس عليك من ذلك ، والحق الحبوب بجميع

ما يحاطها من القذى في جوف الأرض العادلة البارة فإنها لا تمليك
 إلا قهراً خالصاً نقياً فأما القذى فإنها تبعه في مكنون وتدفعه ولا تدرك
 عنه كلمة وما هي إلا برهة حتى ترى الفم يحرق زكياً يهتز كأنه سياتك الذهب
 الإبريز ، والأرض السكرية قد حاولت كشحاً على الأثداء وأفضت بل
 أنها حولتها كذلك إلى أشياء نافذة ولم تشك منها شجراً ولا نصيباً ،
 وهكذا الطبيعة في جميع شؤونها فهي حق لا باطل ، وهي عاقبة وعادلة
 ورحيمة صنون ، وهي لا تشترط في الشيء إلا أن يكون صادق الباب
 حر الصميم ، فإذا كان كذلك حتمه وحرسه ، أو كان غير ذلك لم تحميه ولم
 تحرسه ، فترى اسكل شيء يحميه الطبيعة روحاً من الحق ، ليس شأن
 سبب القمح هذه والطبيعة هو شأن كل حقيقة كبرى ، جاءت إلى هذه
 الدنيا أو تجيء فيما بعد ؟ أعنى أن الحقيقة مزيج من حق وباطل ، نور
 في ظلام ، وتجيئنا الحقائق في أبواب من القضايا المطلقة والنظرات
 العلمية عن الكائنات . لا يمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة ، ثم لا بد
 من أن يحمى يوم يظهر فيه نقصها وخلوها وجورها ، فتموت وتذهب .
 نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى أبداً ويتخذ
 ثوباً أظهر ، وبدناً أشرف ، وما يزال ينتقل من الأبواب والأبدان
 من حسن إلى أحسن وجيد إلى أجود ، مسنة الطبيعة التي لا تتبدل ،
 نعم لأن جوهر الحقيقة الكريم حتى لا يموت وإننا المنطقة المهمة
 والأمر الوحيد الذي يعرض في بحكمة الطبيعة ويجاس قضائها ، هو هل
 هذا الروح حق وهو من أعماق الطبيعة ؟ وليس بهم عند الطبيعة
 ما نسميه نقاء الشيء أو عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائي ، ليس الأمر
 المهم عند الطبيعة حينما تقدم إليها أنت لتصدر حكمها فيك ، هو أفليك
 أقدار وأكدار أم لا ؟ وإنما هو أفليك جوهر حق وروح صدق أم لا ؟

أو بمباراة تشييمية ليس السؤال المهم عند الطبيعة هو أفيك قشور أم لا ؟ بل أفيك قح ؟ أيقول بعض الناس إنه نقى ، إلى أقول له : نعم نقى — نقى جداً ولكنك قشر — ولكنك باطل وأكذوبة وزور وثوب بلا روح ومجرد اصطلاح وعادة ، وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة ، والواقع أنك لا نقى ولا نقى ، وإنما أنت لا شيء ، والطبيعة لا تعرفك وأنها منك براء .
قضاء محمد على وثنية العرب والعقائد الفاشية في تلك الأيام

ونظر محمد من وراء أصنام العرب السكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ، ودواياتهم وبراهينهم ، ومن أعينهم وقضاياهم — نظروا ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق ، وعينه المتوقدة الجليلة إلى أبواب الأسرار وصممه فقال في نفسه : الوثنية باطل ، وهذه الأصنام التي تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب ، أخشاب لا تضر ولا تنفع ، وهي منك فظيع وكفر لو تعلمون ، إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خلقكم وبه حياتكم وموتكم ، وهو أرف بكم منكم ، وما أصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .
وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بفلوبهم النارية لجدير أن يكون حقاً وجدير أن يصدق به ، وأن ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذي للإنسان أن يؤمن به ، وهذا الشيء هو روح جميع الأديان — روح تلبس أثواباً مختلفة وأثواباً متعددة ، وهي في الحقيقة شيء واحد ، وبتابع هذه الروح يصبح الإنسان اماماً كبيراً لهذا المجد الأكبر : الكون جوارياً على قواعد الخالق ، تابعاً لقوانينه لا يحاول عبثاً أن يقاومها ويدافعها ، ولم أعرف قط تعريفاً لواجب

أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب في السير على منهاج الدنيا ، فإن
الفلاح في ذلك (إذا كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) .

وجه محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدل وتتنابط بالهيج
الجائرة وماذا أفاد ذلك ؟ وماذا أهمر ؟ أما أن الأهم ليس صحة ترتيب
القصايا المنطقية وحسن إنتاجها وإنما هو أن خلق الله وأبنا آدم
يمتدنون تلك الحقائق الكبرى . لفسد بناء الإسلام على تلك المال
السكاذبة والنسل الباطلة ما يتلما وحق له أن يتلما لأنه حقيقة خارجة
من قلب الطبيعة . وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات
العرب ، وكل ما لم يكن بحق ، فإنما سطبت ميت أكلته نار الإسلام .
فذهب والنار لم تذهب .

القرآن وإعجازه

أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر
دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة . هذا وأن الترجمة تذهب
بأكثر جمال الصنعة (١) وحسن الصياغة ولذلك لا عجب إذا قلت أن الأوربي
يُجهد في قراءة القرآن أكبر عناء ، فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد ، لا يزال
يقطع في صفحتها قفارا من القول المل المتعب ، ويحمل على ذهنه هضبا
ويجبالا من الكلام ، لكي يمتثني خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب
فقدرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ، ولأن
لا ترجمه ذهبت بحسنه ورونقه ، فلذلك رآه العرب من المعجزات
وأعطوه من النجيل ما لم يعطه أتمنى النصارى لا يجيلهم ، وما روح في
كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع في شؤون الحياة
(١) الأصح أن يقال بلاغته الإلهية .

ومسائلها . والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجاً منيراً ،
يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطاً مستقيماً ، ومصدر أحكام
النضاه ، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستئذانه به فى غياهب
الحياه ، وفى بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة ،
يتناسله ثلاثون قارئاً على التوالي ، وكذلك ما يروح هذا الكتاب يرون
صوته فى آذان الآلاف من خلق الله وفى قلوبهم اثني عشر فرناً فى كل
آن ولحظة ، ويقال إن من النقهاء من قرأه سبعين ألف مرة ١١

الإخلاص من فضائل القرآن :

لماذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وإذا خرجت
من القلب نفذت إلى القلب ، والقرآن خارج من فؤاد محمد (ص) فهو جدير
أن يوصل إلى أفئدة سامعيه وقارئينه . وقد زعم «براديه» وأمثاله أنه
طائفة من الأخاديع والنزائيق لفقها محمد لتكون أعذاراً له عما كان
يرتكب ويعترف ، وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ١١ ولكنه قد آن
لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال ، فإن لامة كل من يرمى محمد (ص)
بمثل هذه الأكاذيب وما كان ذو نظر صادق ليرى قط فى القرآن مثل
ذلك الرأى الباطل . والقرآن لو تبصرون ما هو إلا جمرات ذاكيات
قد فت بها نفس رجل (٢) كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال ،
فى الخاوات الصامتات ، وكأنه الخواطر تقرأ عليه بأسرع من لمح
البصر ، وأتراسهم فى صدره حتى لا تكاد تجد مخرجاً ، وقل ما نطق
به جانب ما كان يحيش بنفسه العظيمة القوية ، هذا وقد كان تدفع الوقائع

(١) و (٢) هذا تعبير خاطئ ، والصحيح أنه وحى من الله .

وتدفع الخطوب يجعله عن رؤية القول ، وتنميق الكلام ويألهما من
خطوب كانت تطيح به ، وتطير ، فليقد كان في هذا السنين الثلاث
والعشرين قطباً لرحى حوادث متلاحقات متصادمات وعالم كاه هرج
وفتن ومحن : حروب مع قریش والسكفار ، ومخاصمات بين أصحابه (١) ،
وهياج نفسه وثوراتها - كل ذلك جعله في نصب دائم وعناء مستمر فلم
تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط ، وقد أتغزل روح عمدة الحادة
الدارية وهي تتمدد طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب وتدور
بها دوامات الفسك وحتى إذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نوراً بهط عليها
من السماء ، وكل هزم مقدس يهزم به يخاله جبريل ووحيه (٢) . أين عزم
الإنفاكون الجملة انه مشعوذ ومحتال ؟ كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك
القلب المحترق الجائش كأنه تمور فكر يفور ويتأجج ، ليكون قلب
محتال ومشعوذ . لقد كانت حياته في نظره سقاء ، وهذا الكون حقيقة
رائعة كبيرة .

الإخلاص منشأ الفضائل :

والإخلاص المحض الصراح يظهر لي أنه فضيلة القرآن التي حبيبته -
إلى العربي وهي أول فضائل الكتاب أيا كان وآخرها وهي منشأ فضائل
غيرها ، بل لا شيء غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى ، من
العجب أن نرى في القرآن عرقاً من الشعر يجرى فيه من بدايته إلى نهايته -
ثم يتخلله نظرات نافذات - نظرات نبى وحكيم - أجل لقد كان لمحمد

(١) لم يحدث بين الصحابة مخاصمات إلا كما يكون بين الإخوة .
والأحباب . (٢) بل كان ﷺ مؤيداً بمداية الله لا يتغزل إليه .

في شؤون الحياة عين بصيرة ثم كان له قدرة عظيمة على أن يوقع
في أذهاننا كل ما أبصره ذهنه (١) .

القرآن محل أسرار الأمور:

أنا لا أحفل كثيراً بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد
والتمجيد لأنى أرى لها في الإنجيل شبهاً ، ولكنى شديد الإعجاب
بالنظر الذى ينفذ إلى أسرار (٢) الأمور، فهذا أعظم ما يلذنى ويعجبنى ،
وهو ما أجده في القرآن ، وذلك كما قلت ففضل الله يؤتیه من يشاء .

المعجزات في نظر الإسلام :

وكان محمد إذا سئل أن يأتي بمعجزة قاله : حسبكم بالسكون معجزة
انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله ؟ وآية هلى وجوده
وعظمته ! هذه الأرض التى خلقها الله لكم ونهج لكم فيها سبيلاً
تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه وهذا السحاب المسير فى الآفاق
لا يدرك من أين جاء وهو مستخر فى السماء كل معجزة كارد أسود ثم
يسبح بمائه ويهبط ليجي أرضاً مواتاً ويخرج منها نباتاً ونخلاً
وأعشاباً : أليس ذلك آية ؟ والأعنام خلقها لكم تحول السكلا لنباتاً
وهى فخر لكم . والسفن - وكثيراً ما يذكر السفن - كالجبال العظيمة
المنحركة تنشر أجنحتها وتحترف فى سواها اليم ، لها حاد من الريح ويأمن
تسير إذا هى فسد وقفت بغثة وقبض الله الريح ، معجزات والله
كل هذه وأى معجزات بعدها تريدون ؟ أستم أنتم معجزات ! لقد
كنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكبروا أبداً ثم لكم جمال وقوة وعقل ، ثم

(١) هو يرى أن فى القرآن شعراً ، وهذا قول باطل : وما علمناه
الشعر وما يلغى له (٢) . (٢) ليس نظراً وإنما هو كلام الله تعالى .

وهبكم الرحمة أشرف الصفات ، وتكرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون
وتن عظامكم وتموتون فتصيحوا غير موجودين دهم وهبكم الرحمة ،
لقد أدعشتني جداً هذه الجملة ؛ فإن الله ربما كان خالق الناس بالرحمة
فإذا كان يكون أمرهم هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة .
وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبدية وآيات على أشرف
الحامد وأكرم الخصال . وأتبين فيه عقلاً راجحاً عظيماً وعيناً بصيرة
وفؤاداً صادقاً ورجلاً قويا عبقرياً ولو شاء لسكان شاعراً فحلاً أو فارساً
بطلاً ، أو ملكاً جليلاً ، أو أى صنف من أصناف الأبطال . نعم
لقد كان العالم في نظره معجزة أى معجزة . وكان يرى فيه كل ما كان
يراه أعظم المفكرين حتى أهم الشبال المتوحشة ، وهو أن هذا
الكون الصاب المسادى إنما هو في الحقيقة لا شيء إنما هو
آية على وجود الله منظورة ملبوسة وهو ظل عاقله الله على صدر
الفضاء لا غير . وكان يقول : هذه الجبال الشاهقات ستجمل وتذوب
مثل السحاب وتنفى ، وكان يقول : الجبال أوتاد الأرض وإنما ستنفى
كذلك يوم القيامة وأن الأرض في ذلك اليوم العظيم تنصدع وتنفتت
وتذهب في الفضاء هباءً منثوراً ، فتندم ، وكان لا يزال واضحاً
لعينيه سلطان الله على كل شيء وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ، ورواق
باهر ، وهول عظيم ، هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة ، وهذا
ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ، ولا يرونه شيئاً مقدساً ، بل
لا يرونه شيئاً واحداً وإنما هو أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمشقال ،
وتستعمل في تسير السفن البخارية ، فمرحان ما تنسينا السكياويات

والحسابيات ما يمكن في السكائنات من سر الله ، وما أخش ذلك النسيان
 طاراً ، وأكبر هذه الغفلة إنما ، وإذا نسيت ذلك فأى الأمور يستحق
 الذكر إذن ، فمعظم العلوم أشياء مهيئة خاوية بالية - بقلة ذابطة ، نعم
 وما أحسب العلم لولا ذلك إلا خشياً يابساً ميتاً وليس هو بالشجرة
 القامية ، ولا بالغابة الكشيفة المتفتة ، التي لا تبحر تمدك بالخشب لشر
 الخشب فيما تمدك وتعطيك ، ولن يبعد المرء السبيل إلى العلم حتى يبعده
 أولاً إلى العبادة ، أعنى أنه لا علم إلا لمن عبده ، وإلا فما العلم إلا شقة شقة
 كاذبة ، وبقلة كما قلت ذابطة .

الرد على متهمى الاسلام بشهوائيه :

وقد قيل وكتب كثيراً في شهوانية الدين الإسلامى ، وأرى كل
 ما قيل وكتب جوراً وظلماً ، فإن الذى أباحه محمد بما حرمته المسيحية لم
 يمكن من تلقاء نفسه ، إنما كان جارياً متبعاً لى العرب من قديم الأزل ،
 وقد قلل محمد هذه الأشياء مجرده ، وجعل عليها من الحدود ما كان
 في إمكانه أن يجعله ، والدين المحمدي بعد ذلك ليس بالسمل ولا بالمين ،
 وكيف ومعه كل ما تعملون من الصوم والوضوء ، والقواعد الصعبة
 الشديدة ، وإقامة الصلاة خمساً في اليوم ، والحرم من الخمر ١١ . وليس كما
 يزعمون : كان نجاح الإسلام وقبول الناس إياه لسهولة ، لأنه من
 أخش الطعن على بنى آدم والقدح في أعراضهم ، أن يهتموا بأن الباعث
 لهم على محاولة الجلائل وإتيان الجسائم ، هو طالب الراحة ، واللذة
 التماس الخلو من كل صنف في الدنيا والآخرة أكلاً فإن أخس الآدميين

لا يخلو من شيء من العظمة والجلال ، فالجندى الجاهل الجلف الذى
يؤجر يمينه وروحه فى الحروب بأجر بخس ، له مع ذلك « شرف »
يخلف به فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفى ، وليست أمنية
أحقر الآدميين هى أن يأكل الحلوى ، بل أن يأتى عملاً شريفاً وفعلًا
محموداً ، ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم . ليعمد أيكم إلى أبعد
إنسان فيريده سبيل المكرمات والمحامد ، فإذا هو قد تأجج قلبه حماساً
واتقدت نفسه غيرة ، وصار فى الحال بطلاً . وما أظلم الذين يتهمون
الإنسان بقولهم إنه ميال بفطرته إلى الراحة ، وإنه يستهوى بالترف
ويستغوى باللذة ، إنما مغريات الإنساف وجاذباته هى الأهوال
والسمائب والاستشهاد والقتل ، اقذح ما بنفس المرء من زناد الفضل ،
تلك ناراً تخرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص . وما كان قط
اعتناق الناس لدين من الأديان لما يرجون من متاع ولذة ، بل لما يثور
فى قلوبهم من دراعى الشرف والعظمة .

براءة محمد من الشهوات وتواضعه وتقشفه :

وما كان محمد أخا شهوات ، برغم ما اتهم به ظالما وعدوانا ،
وشدة ما نجور ونخبط . إذا حسبناه رجلاً شهويًا ، لاهم له إلا قضاء
مآربه من الملاذ ، كلا ، فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت ، لقد
كان زاهداً متقشفًا فى مسكنه ، ومأكله ، ومشربه ، وملبسه ، ومائر
أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور
ولم توقد بداره نار ، وانهم ليذكرون - ونعم ما يذكرون - أنه كان

يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد
 من رجل خشن اللباس ، خشن الطعام ، مجتهد في الله قائم النهار ، ساهر
 الليل ، دأباً في نشر دين الله ، غير طامع إلى ما يطمح إليه أصاغر
 الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة
 كيفما كانت ، رجل عظيم ورعكم وإلا فما كاف ملاقياً من أولئك
 العرب الغلاظ توفيراً واحتراماً وإكباراً وإعظاماً ، وما كان يمكنه
 أن يقودهم ويمارشهم معظم أوقانه ، ثلاثاً وعشرين حجة وهم ملتفون
 به يقاؤون بين يديه ويجاهدون حوله ، لقد كان في هؤلاء العرب جفاء ،
 وغاظة ، وبادرة ، وعجفية ، وكانوا حماة الأنوف ، آية الضيم ،
 وعرو المقادة صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياستهم ، وتذليل جانبيهم
 حتى رضخوا له واستقادوا فداكم وأيم الله بطل كبير ، ولولا ما
 أبصروا فيه من آيات النبيل والفضل ، لما خضعوا له ولا أذعنوا ،
 وكيف وقد كانوا أطوع له من بنيانه .

وظئ أنه لو كان أتبع لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه
 وصولجانه لما كان مصلياً من طاعتهم مقدار ما ناله محمد ، في ثوبه
 المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة ، وهكذا تكون الأبطال .

مكرمات محمد وأخلاقه :

وكانت آخر كلماته تسبيحاً وصلابة - صوت فؤاديه بين الرجاء
 والخوف ، أن يصعد إلى ربه ، ولا يحسب أن شدة تديفه أذرت بفضل
 كلاب زاداته فضلاً ، وقد يروى عنه مكرمات عالية ، منها قوله حين
 رزى غلامه (١) :

(١) أي حين فقد ابنه إبراهيم .

« العيين قد مدح والقلب يوجع ، ولا تقول ما يستخط الرب » .
ولما استشهد مولاه زيد ابن حارثة في غزوة « مؤتة » قال محمد :
« لقد جاهد زيد في الله حق جهاده ، وقد أبق الله اليوم فلا بأس
عليه » . ولما سكن زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثة أبيها - وجدت
الرجل السكحل الذي دبّ في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعاً فقالت :
« ماذا أرى » ؟ قال : « صديقا يبكي صديقه »

مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا في محمد أخا الإنسانية
الرحيم ، أخانا جميعاً الرقوف الشفيق ، وابن أمنا الأول وأبنا الأول .
براعة محمد من الرياء والتصنع :

والى لأحب محمدأ لبراعة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان
ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأي ، لا يعول إلا على نفسه ، ولا يذهب
ما ليس فيه ، ولم يك متسكراً واسكنه لم يكن ذليلاً ضرعاً . فهو قائم
في ثوبه المرقع كما أوجده الله ، وكما أراد ، يخاطب بقوله الطر المبين ،
قياصرة الروم وأكاسرة العجم ، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه
الحياة وللحياة الآخرة ، وكان يعرف لنفسه قدرها ، ولم تخل الحروب
الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ، واسكنها لم تخل
كذلك من دلائل رحمة وكرم وفقران . وكان محمد لا يعتذر من الأولى
ولا يفتخر بالثانية ، إذ كان يراها من وحى وجدانه (١) وأوامر
شعوره ، ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين .

(١) بل هي من وحى إلهي لتكون سلفاً من بعده .

ما كان محمد بماث :

وكان رجلاً ماضى العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد وطالما كان يذكر يوم «نبوك» إذا أبى رجاله السير إلى موطن القتال ، واحتجوا بأنه أوان الحصيد (١) ، وبالحرب ، فقال لهم : الحصيد ! إنه لا يابث إلا يوماً فماذا تنزودون للأخرة ؟ والحرب ؟ نعم لأنه حر ولستكن جهنم أشد حرّاً ، وربما خرج بعض كلامه تهكماً وسخرية ، إذ يقول للكفار : ستجنون يوم القيامة على أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبعثون مشقال ذرة . وما كان محمد بماث قط ، ولا شاب شيئاً من قوله شائبة لعب ولهو بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء ، ولم يك منه إذاءها إلا الإخلاص الشديد ، والجد المر .

التلاعب بالحقائق من أفطع الجرائم :

فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية ، والعبث بالحقائق ، فما كان من شأنه قط . وذلك عندى أفطع الجرائم ، إذ ليس هو لارقدة القلب ووسن العين عن الحقائق ، وعيشة المرء في مظاهر كاذبة ، وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الإنسان ، هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب ، بل أنه هو نفسه أكذوبة ، وأرى شخصية المروءة والشرف - شعاع الله متضائلاً في مثل ذلك الرجل مضطرباً بين عوامل الحياة والموت - فهو رجل كاذب ، لا أنكر أنه مصقول اللسان ، مهذب حواشي الكلام ، يحرم في بعض الأزمان والامكنة ؛ لا تؤذيك بادرته ؛ أين المس رقيق لمس ! لكنه كحمض الكربون ، تراهم على أطفه سماً فقيماً وموتاً ذريعاً (٢)

(١) القائلون لذلك هم المنافقون لأصحابية الرسول ﷺ .

(٢) من قوله «إذ ليس هو إلا» إلى «موتاً ذريعاً» وصف للمتلعب الحقائق .

المساواة بين الناس من خلال الإسلام :

وفي الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها وهي التسوية بين الناس ، وهذا يدل على أصديق النظر ، وأصوب الرأي (١) . فنفوس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض ، والناس في الإسلام سواء .

الزكاة في الإسلام :

والإسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة ؛ بل يجعلها فرضاً حتماً على كل مسلم (٢) ؛ وقاعدة من قواعد الإسلام ، ثم يقدسها بالذسبة إلى روة الرجل ، فتكون جزء من أربعين من الثروة (٣) ؛ تعطى إلى الفقراء والمساكين والمكروبين . جميل والله كل هذا ، وما هو إلا صورت الإنسانية - صوت الرحمة والإخاء والمساواة ؛ يصيح من فؤاد ذلك الرجل (٤) - ابن القنار والصعراء .

الجنة والنار في نظر القرآن :

ويشكر البعض تغليب الحسية المادية على جنة محمد وناره ؛ فأقول إن الغيب في ذلك على الشراح والمفسرين لا على ما جاء في الكتاب ، فإن القرآن قد أقبل جلدأ من إسناد الحسنيات والماديات إلى الجنة والنار ، وكل ما فيه عن هذا الشأن إيماناً وتلييح ، وإنما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ، ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ، (١) ليس في الإسلام رأى ، إنما هو مستمد من الكتاب والسنة والإجماع والقياس عليها .

(٢) هي فرض على القادر من المسلمين (٣) هذا تعميم خير دقيق ، ولكن للزكاة أحكام حسب نوع المال (٤) بل هو من عند الله .

ولا هذا با بدنيا وأما جسمانيا ، حتى أسندوه إلى النار (١) ، ثم لا تفسدوا
 أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيا إذ قل : ﴿ وقال لهم شئتم
 سلام عليكم طبعتم فادخلوها خالدين ﴾ والسلام والآن هما في نظر كل
 حال أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة ، الذى الذى عبثا يتلبسه
 الإنسان فى الحياة الدنيا ، وقال أيضا ﴿ وزعنا ما فى صدورهم من غل
 إخوانا دلى سمر متقابان ﴾ وأى رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن
 والمصائب والنقم والآفات ، وأى شئ أهنأ من التألف والتصافى ؟
الصيام فى الإسلام :

وأى دابل أشهر وبراءة الإسلام من الدبل إلى الملاذ من شهر رمضان
 الذى تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتقذع عن مأربها
 وهذا هو مستهى العقل والحزم ، فإن مباشرة اللذات ليس بالمفكر ، وإنما
 المنكر هو أن تذلل النفس لجوار الشهوات ، وتنقاد لحادى الأوطار
 والرغبات ، ولعل أبجد الحصال وأشرف المكارم ، هو أن يكون للمرء
 من نفسه على نفسه سلطان ، وأن يجهل من لذاته لاسلاسل وأغلال تعبيه
 وتعتاص عليه ، إذا هم أن يصدعها ، بل حايماوز شارف دق شاء فلاشوء
 أهون عليه من خلعها ، ولا أسهل من نزوعها . وكذلك أمر رمضان
 سواء أكان مقصوداً من محمد (ص) مهينا ، أو كان وحى الفريزة وإلهاما
 فطاريا ، فهو والله نعم الأمر .

الجنة والنار رمز الحقيقة الأبدية :

ويمكننا القول دلى كل حال بأن الجنة والنار هما رمز لحقيقة

(١) كلامه ليس صحيحاً لأن التفسير أصولاً عند المسلمين لم
 يطالع عليها (٢) بل هو وحى الله .

أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلاً صادفت في القرآن ، وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها ، وقيام الساعة التي يقول عنها : ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ ماذا ترون كل هذه الأظلال تمثل في خيال النبي (١) الشاعر للحقيقة الروحية الكبرى رأس الحقائق أعني الواجب ، وجسامة أمره ، لئذ كان هذا الرجل يرى الحياة أمراً جسيماً ويرى لكل عمل إنساني مهما حقّر خطارة كبرى ، فما كان من سوء فله من السوء نتيجة أبدية ، وما كان صالحاً فله من الصلاح ثمرة سرمدية وأن المرء قد يسمو بها لعلاته إلى أعلى عليين ، ويهبط به بقائمه إلى أسفل سافلين ، وإن على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلمتدح في روح ذلك الرجل الفقير ، كأنما قد نقش ثمت بأحرف النار ، وكل ذلك قد ساول في أشد إخلاص ، وأحد جد ، أن يخرج به للناس ويصوره لهم ، فأخرج به وصوره في صورة تلك النار والجنة ، وأى ثوب لبسته هذه الحقيقة ، وأى قالب صبغت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة في أى أسلوب وأى صورة .

منزلة الإسلام في قلوب المسلمين :

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب (١) من النصرانية ، وفيه للمبشرين أشرف معاني الروحانية وأعلاها ، فأعرفوا له قدره ولا ينخسوه حقه ، ولقد مضى هابه ميثان وألف عام وهو الدين القويم ، والصراط المستقيم لخمس العالم ، وما زال فوق ذلك ديناً يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم (١) ما يقوله المؤاف خطأ وباطل ولا أساس له .

ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين
 بإسلامهم - إذ يوقنون به كل اليقين ، ويواجهون به الدهر والأبد ،
 وسينادي الحارس الليلة في شوارع القاهرة أحد المارة (من السائر ؟)
 فيجيبه السائر (لا إله إلا الله) . وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل
 لقرن آناء الليل وأطراف النهار ، في أرواح تلك الملايين الكثيفة ،
 وأن الفتواء ذوى الغيرة في الله والنفاى في حبه ، أيا تون شعوب الوثنية
 في الهند والصين والمالاي ، فيهدمون أضاليلهم ، ويشيدون مكانها
 قواع الإسلام ، ونعم ما يفعلون .

تأثير الإسلام على العرب وفضلهم عليه :

ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا
 به من العرب أمة هامة وأرضاً هامة ، وهل كانت إلا فئة من جموع
 الأعراب ، خاملة فقيرة تجوب الغلاة ، منذ بدء العالم ، لا يسمع لها
 صوت ولا تحس منها حركة . فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة
 من قبله ، فإذا الخول قد استحال شهرة ، والغرض نباهة ، والضعف رفعة ،
 والضعف قوة ، والشرارة حريقا ، وسبح نوره الانحاء وعم صنوؤه
 الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب ، وما هو
 إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند
 ورجل في الاندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهورا
 مديدة بنور الفضل والنبل ، والمروءة والبأس ، والنجدة . وروثق
 الحق والهدى على نصف المعمورة ، وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث

الحياة ومنبع القوة ، وما زال الأمة رقى في درج الفضل ، وتعريج
إلى ذرى المجد، ما دام مذهبها اليقين ومنهجها الإيمان ، الستم ترون
في حالة أولئك الأعراب ومحمد وعصرهم ، كأنما قد وقعت من
السما شرارة على تلك الرمال، التي كان لا يهتبر بها فضل، ولا يرجى
فيها خير ، فإذا هي بارود سريع الانفجار ، وما هي برمل بيت ،
وإذا هي قد تأججت واشتعلت ، واتصفت ناراها بين فرائط ودلى .
واطاما قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء ، وسائر الناس
في انتظاره كالخطب ، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

[تم الكتاب]

الطبعة الثانية
١٤١٣ هـ ~ ١٩٩٣ م
١٠٠